

عظمة الخلق؛ ميدانُ إلهيِّ لارتقاء الإنسان نحو مقام التشبّه بصفات الله

من السماوات إلى الأرض؛ عظمة الخلق بوصفها خريطة ارتقاء الإنسان تخيل أنك تدخل مصنعًا بالغ الضخامة تنتظم فيه أدق البراغي إلى أعقد الآلات ضمن نظامٍ دقيقٍ محكم. فخطوط الإنتاج، والمخازن، وأنظمة التحكم، وحتى مسارات تنقل الموظفين والعاملين، كلّها صُمّمت وفق هدفٍ محدّد. في مثل هذا المكان، لا يخطر ببال ناظرٍ عاقل أن يتساءل: «هل أنشئ هذا المجمع بلا غاية؟» أو «هل تجمّعت هذه الإمكانيات مصادفة؟» بل سيكون السؤال الجوهري: لأيّ منتج ولأيّ وظيفة صُمّم هذا المصنع؟

وإذا تجاوزنا هذا المثال المحدود ونظرنا إلى واسع الكون؛ رأينا عالمًا يضمّ مليارات المجرات، ونظامًا فيزيائيًا دقيقًا، وحياءً بالغة التعقيد، وروابط مذهلة بين مكوناته. فهل من المنطقي أن نعتبر هذا النظام الهادف فاقداً للغاية أو خالياً من العلاقة بالإنسان؟ هنا يحدّد القرآن الكريم جهة التحليل بوضوح، إذ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^١. تمنح هذه الآية إطارًا تفسيريًا جليًا: فالكون ليس مجموعةً متروكة بلا غاية، بل بنية هادفة، وعلاقته بالإنسان علاقة «البيئة» ب«النمو». ومن هذا المنظور، ليست عظمة الخلق مجرد موضوعٍ مذهش، بل مفتاحًا لفهم مكانة الإنسان ومسار كماله.

عظمة الخلق على المقياس الكوني

من أولى مواجهات الإنسان مع عظمة الوجود تأمله في السماء. فالقرآن الكريم، يتحدث ببيانه موجزٍ لكته عميق، عن بداية خلق السماوات والأرض، ويدعو الإنسان إلى التأمل والتفكير في هذه العملية. وعلى الرغم من التقدّم الهائل الذي حقّقه علم الفلك وعلم الكونيات، فإن ما شاهده البشر حتى الآن لا يُعدّ سوى جزء محدود من الخليقة؛ وهو "السماء الدنيا" التي وصفها القرآن بأنها مزدانة بزينة الكواكب. فالمسافات التي تُقدّر بمليارات السنين الضوئية، إنما تُبين حدود هذه المرتبة من الخلق، وليست نهايتها المطلقة. إنّ عجز العلم عن تجاوز هذه الطبقة الأولى يحمل رسالة واضحة: "الإنسان، وإن كان قادرًا على الاكتشاف، إلا أنه لم يبلغ بعد إلى كنه حقيقة خلق الكون".

هنا تؤدّي عظمة الخلق دورًا تربويًا؛ إذ تُنبّه الإنسان إلى محدودية العقل التجريبي، وتكشف حاجته إلى الهداية الإلهية لفهم معنى الوجود. وهذه اليقظة مقدّمة لعبودية عقلانية، وخروج من غرور المعرفة الذي يُعدّ من أعظم عوائق نموّ الإنسان.

عظمة الخلق في الأرض؛ مدرسة للفهم والمسؤولية

إن كانت مشاهدة السماوات تُواجهنا بسعةٍ لا متناهية، فإن الأرض تُعرّفنا بدقةٍ وتوازن وحكمة في التفاصيل. فالقرآن الكريم، من خلال الإشارة إلى تنوع محاصيل الأرض وثمراته، يلفت انتباه الإنسان إلى ظاهرة تبدو في ظاهرها بسيطة، لكنها حافلةً بمعنى عميق: تربة واحدة، وماء واحد، وظروف متشابهة إلى حدّ كبير، ومع ذلك تتباين النتائج تباينًا تامًا. فثمار مختلفة في الطعم والألوان والوظائف، تنبثق من مهد واحد. هذا التنوع المنسجم يدل على أن نظام الخلق لا يقوم على مجرد الاستهلاك، بل صُمّم وفق أسس التوازن والتجدد. وعلى هذا المستوى، تعلمنا عظمة الخلق أن الانتفاع من النعم لا ينفك أبدًا عن تحمل المسؤولية.

وهكذا تتحوّل الأرض إلى ساحة تدريب للإنسان: تدريب على حسن الاستخدام، وحفظ التوازن، وتجنّب الإفراط. وكلّ اختلال في هذا النظام لا يعود إلى نقص في الخلق، بل إلى سوء اختيار الإنسان. ومن ثمّ، تغدو الطبيعة مرآة يرى الإنسان فيها جودة سلوكه ومستوى فهمه.

عظمة الخلق بوصفها مسارًا لتربية الإنسان على التشبّه بصفات الله

في المنطق التوحيدى، لا يقتصر الهدف النهائي لخلق الإنسان على البقاء أو الرفاه المادي. فالإنسان كائنٌ يمتلك قابلية تلقّي الصفات الإلهية وتجليها؛ كالعلم، والاختيار، والرحمة، والحكمة. غير أنّ تفعيل هذه القابليات يحتاج إلى بيئة مناسبة أو منصة تتيح النمو من جهة وتوفّر مجال الاختبار من جهة أخرى.

ضمن هذا الإطار، تعمل عظمة الخلق كنظام تربوي: فالسماوات تقود الإنسان إلى التواضع المعرفي، والأرض تدعوه إلى المسؤولية العملية، وتنوّع الخلق يحفّزه على التفكير والاختيار الواعي.

فإذا ما نظر الإنسان إلى العالم بوصفه مصدرًا لقضاء الشهوات والرغبات فحسب، فإن عظمة هذا العالم ستتحول إلى أداة للغفلة؛ أما إذا اعتبره علامة هادية، فإن كل ظاهرة طبيعية ستغدو خطوةً في طريق الكمال. وعليه، فإن الخلق ليس عائقًا أمام القرب الإلهي، بل هو الوسيلة الموصلة إليه.

في الرؤية القرآنية، لا يُعد العالم ساحةً عبثيةً ولا مادةً صرفةً، بل هو بنية ذكية محكمة أُعدت لتربية الإنسان. إن اتساع السماوات، ونظام الأرض، واستمرار الحياة، تكتسب جميعها معناها ضمن منظومة متكاملة تهدف إلى إبراز القدرات الإلهية الكامنة في الإنسان. ولا يمكن فهم عظمة الخلق حقَّ الفهم إلا إذا نظر الإنسان إليها لا بوصفها محطة نهائية، بل كمسار للتشبه بصفات الله؛ طريق يبدأ بالتفكير وينتهي بالاختيار الواعي

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer

Mentazer Mentazer